Strategy
WATCH

المرصد
الاستراتيجي

حلب والسياسة الأمريكية في سوريا

19 اكتوبر 2016

نشر موقع «يوراسيا رفيو» ورقة تحليلية بعنوان:
«Aleppo and America's Syria Policy»
(5 أكتوبر 2016)

تتناول السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الملف السوري، حيث تتعرض مدينة حلب لحصار وقصف عشوائي من قبل النظام السوري وحلفائه الروس والإيرانيون والميليشيات العراقية التابعة لها و»حزب الله» اللبناني، في حين تتصاعد نغمة انتقاد الولايات المتحدة لعدم تدخلها لوقف نزيف الدم الذي وصل حداً غير معهود منذ الغزو الأمريكي للعراق.

وبينما يناشد البعض واشنطن لإنقاذ الشعب السوري؛ ينتقد آخرون سياسات أوباما الفاشلة ويحملونه المأساة التي حلت بهذا البلد، حيث تم الكشف مؤخراً عن لقاء جمع كيري مع مجموعة من الناشطين المدنيين السوريين اعترف فيه بإخفاقه بسبب افتقاد التهديد الجدي لاستخدام القوة ضد النظام، مؤكداً أن الكونغرس كان يرفض استخدام القوة وفق، ولا شك في أن تنامي مشاعر السخط إزاء تراخي السياسات الأمريكية يلقي بظلاله على مصداقية ودور واشنطن في منطقة الشرق الأوسط عموماً وفي سوريا على وجه الخصوص.

لكن الدراسة ترى أن معظم الانتقادات الموجهة إلى واشنطن تقوم على أسس انفعالية أكثر بدلاً من التركيز على المصالح الأمريكية التي لا يمكن تحديدها بصورة كاملة إلا من خلال وضع إطار مرجعي لتقييم المصلحة الأمريكية في سوريا ضمن: التاريخ الحديث للعلاقات الأمريكية-السورية، والأزمات الحالية التي تعصف بالعالم العربي، والحرب على الإرهاب، وبزوغ فجر الواقعية العالمية الجديدة.

فتاريخ العلاقات الأمريكية-السورية يعتريه التصادم والتناقض، مما يجعل قيام تدخل عسكري أمريكي في سوريا بعيد الاحتمال، إذ غن العلاقات بين الطرفين تتصف بالعداء والتناقض قبل مجيء عائلة الأسد للحكم، وعلى خلاف فرنسا وبريطانيا؛ لم يكن لدى الولايات المتحدة أطماع استعمارية في الشرق الأوسط، بل بدأت العلاقات الأمريكية-السورية مع كل من «إسرائيل» وسوريا بنفس السوية بعد الحرب العالمية الثانية، حيث اعترفت الولايات المتحدة باستقلال سوريا قبل تأييدها إعلان «دولة إسرائيل»، ولم يكن يُقصد من دعم إسرائيل اتخاذها حصناً للنفوذ الأمريكي أو قاعدة متقدمة للإمبريالية في المنطقة أو لتوجيه السياسة السورية، لكن الحرب الباردة وسياسات القوميين العرب هي التي ساوت بين «إسرائيل» والاستعمار، وشرّعت الأبواب للتنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وكانت واشنطن تعمل على الحد من نفوذ الاتحاد السوفيتي الذي كان يقتات على الأسى العربي تجاه القوى الغربية، وعلى الدعم الذي تقدمه هذه القوى لإسرائيل، وحينما صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة في 1947/11/29 على تقسيم فلسطين إلى دولتين واحدة لليهود وأخرى للعرب هاجم المتظاهرون السوريون المفوضية الأمريكية في دمشق، وعندما اقترحت كل من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وتركيا على مصر تشكيل «منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط» لاحتواء النفوذ السوفيتي في الشرق الأوسط اعتبر السوريون ذلك الحلف مخططاً إمبريالياً، وكذلك كان الحال عندما دعمت الدول الغربية «حلف بغداد» عام 1955 في مواجهة المد الشيوعي؛ عارضت «القوى التقدمية» (متمثلة في الشيوعيين والبعثيين والكتلة الديمقراطية) ذلك الحلف، وشكلوا تحالفاً مع القاهرة وموسكو لتتحول منطقة الشرق الأوسط إلى مسرح للتنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

وعندما وقع الهجوم الفرنسي والبريطاني والإسرائيلي على مصر فيما أطلق عليه العرب «العدوان الثلاثي» إثر قيام جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس عام 1956، غضبت الولايات المتحدة لعدة أسباب منها محاولة صرف القوميين المصريين عن الاتحاد السوفياتي وعدم منح السوفييت لمزيد من الانخراط في الشرق الأوسط، حيث أجبرت الولايات المتحدة إسرائيل على الانسحاب من المناطق التي احتلتها، ومن جهتها وقفت سوريا مباشرة مع مصر وطار الرئيس شكري القوتلي إلى موسكو في محاولة للحصول على الدعم السياسي والعسكري، حيث كان السوريون ينظرون إلى الاتحاد السوفيتي كحام ومزود لاحتياجاتهم الاقتصادية والعسكرية وبالتالي تبخرت توقعات الولايات المتحدة بتقدير موقفها إزاء حرب السويس، وخشيت من وقوع كامل المنطقة تحت القبضة الشيوعية، مما دفع دالاس للحديث في يناير1957 في الكونغرس معبراً عن خشيته من سقوط المنطقة تحت النفوذ الشيوعي، وصدرت نتيجة ذلك «وثيقة أيزنهاور» التي فوضت الرئيس استخدام القوة لمساعدة وتأمين الاستقلال السياسي وحدة أرض أية مجموعة أو أمة تطلب المساعدة في مواجهة الاعتداءات التي تصدر عن أي بلد يخضع لسيطرة الشيوعية العالمية.

وعندما أرسل الرئيس الأمريكي السفير جيمس رتشاردس إلى الشرق الأوسط لتدشين الوثيقة الجديدة التي لم يؤيدها سوى لبنان والعراق؛ رفضت سوريا استقبال السفير ورفضت الوثيقة باعتبارها تمثل تدخلاً في الشؤون الداخلية وانتهاك السيادة الوطنية وتمهيداً لسيطرة «الإمبريالية» في المنطقة، مما أدى إلى تدهور العلاقات الأمريكية-السورية إلى أدنى مستوياتها في شهر أغسطس من ذلك العام، عندما اتهمت الحكومة السورية واشنطن بتدبير محاولة انقلابية وأصدرت وزارة الخارجية السورية بياناً كشفت فيه عن وجود مؤامرة أمريكية مؤكداً أن الهدف من وثيقة إيزنهاور هو السيطرة على منطقة الشرق الأوسط، مما أدى إلى تبادل طرد السفراء بين واشنطن ودمشق.

ومع مجيء البعث لسدة الحكم إثر انقلاب عسكري؛ قامت الحكومة البعثية بتوثيق علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي للحصول على الدعم المادي والعسكري، واستمر تدهور العلاقات الأمريكية السورية إثر مطالبة الحكومة الأمريكية سوريا بعدم استخدام الأراضي السورية كقاعدة لتنفيذ العمليات الإرهابية ضد إسرائيل، وبعد نكسة 1967

قامت دمشق بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع واشنطن، وبقيت العلاقات الأمريكية السورية سيئة حتى بدأ كيسنجر بجولاته المكوكية لرعاية اتفاقية فض الاشتباك عام 1974، وفق دبلوماسية شاقة لكنها كانت هامة لأنها كشفت للعرب وعلى وجه الخصوص للرئيس حافظ الأسد أنه بدون الدعم الأمريكي فلن يكون هنالك عودة للوضع السابق، مما ساهم بإكمال الاستراتيجية الكلية لنكسون في الشرق الأوسط والتي كشفت أن قدرة الاتحاد السوفياتي على إثارة الأزمات لم تكن متماثلة مع قدرته على حلها، في حين كانت الاستراتيجية الأمريكية تهدف إلى حث الزعماء العرب على التقرب من واشنطن للمساعدة في تحقيق السلام وتغيير نهجهم تجاه «إسرائيل».

وفي عهد الرئيسين فورد وكارتر تم التقارب العسير بين الولايات المتحدة وسوريا، وخاصة في عهد كارتر الذي عمل على تسخير السياسة الخارجية في تمثيل القيم الأمريكية؛ مما أدى إلى تغير النهج الواقعي والقطعي الذي تميزت به السياسة الخارجية في عهد كيسنجر إلى سياسة أكثر انفتاحاً، واستبدلت مفهوم «النظام العالمي» بدلاً من «توازن القوى»، وأعلت من شأن مسألة حقوق الإنسان في أجندت الإدارة، لكن سياسة كارتر المثالية اصطدمت مع واقعية الجغرافيا السياسية، ونجم عن ذلك حالة من الفوضى عززتها الرؤى المنحرفة تجاه العالم لدى مستشاريه، وسرعان ما تعثرت العلاقات الأمريكية-السورية عندما وضعت سوريا على قائمة وزارة الخارجية الأمريكية للدول الراعية للإرهاب عام 1979، مع اعتقادها بالدور المحري لسوريا في التأثير على الأحداث الجارية في المنطقة، ونتج عن ذلك رؤية أمريكية مضطربة إزاء سوريا، وظهر ذلك الاضطراب بوضوح في لبنان، واستمر التوتر بين البلدين حتى الاجتياح الأمريكي للعراق عام2003، ومما يثير السخرية أن مسالة الإرهاب التي باعدت بين البلدين ساعدت على التقريب بينهما آنذاك.

تأثرت العلاقات بين واشنطن ودمشق في ثمانينات القرن الماضي بسبب الحرب الباردة، ونتيجة للتعقيدات والواقع الصعب للشرق الأوسط عموماً، وللصراع السوري-الإسرائيلي في لبنان على وجه الخصوص، فقد قام الرئيس ريغان بطرح مبادرة سلام بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان في 1982 إلا أن الولايات المتحدة تلقت صفعة مؤلمة في لبنان حينما قتل لها 240 جندي من مشاة البحرية في هجوم تعرض له مقرهم في بيروت الغربية في 1983، ورغم توجيه الاتهام لإيران إلا أنه لم يتم استبعاد تورط سوريا في العملية الانتحارية، وسرعان ما دعمت الولايات المتحدة دبلوماسيتها بالتهديد باستخدام القوة وأطلقت النار على المواقع السورية في لبنان، وردت سوريا سوريا بإسقاط طائرتين حربيتين أمريكيتين مما شكل أول مواجهة مباشرة بين البلدين، ونتيجة للانقسام في الإدارة الأمريكية اختار ريغان عدم التصعيد، حيث شكلت الحرب الأهلية اللبنانية وتعقيدات الصراع العربي الإسرائيلي تحدياً للسياسة الأمريكية في المنطقة، فأعادت الولايات المتحدة نشر قواتها وسفنها ووضعت مبادرة السلام في آخر أولوياتها.

وفي الفترة التالية بقيت العلاقات الأمريكية-السورية تتأرجح بين فرض الولايات المتحدة للعقوبات وبين التعاون بين الطرفين، ومما يثير الانتباه أن سوريا كانت البلد الوحيد المصنفة على قائمة الإرهاب الأمريكية التي احتفظت واشنطن بعلاقات دبلوماسية معها، وتنامت علاقة التعاون بين البلدين بعد اجتياح العراق للكويت في 1990 حيث شاركت سوريا في التحالف الذي قادته الولايات المتحدة لإخراج العراق من الكويت، وبعدها أصبحت العلاقات أكثر دفئاً، وأصبحت دمشق محورية لعملية السلام العربية الإسرائيلية، وخلال فترة المفاوضات ساعد الأسد «حزب الله» على بناء قوته على حساب شرعية الدولة اللبنانية وكان الأسد يحظى بالثناء والاستحسان بين الكثير من الزعماء والمفكرين العرب.

وبعد مجيء الأسد الأبن للسلطة كان هنالك أمل بحصول تغيير وانفتاح فعلي؛ إلا أن النظام خاف من زعزعة وضعه، فأحكم قبضته الأمنية وقام بمراقبة كافة النشاطات الاجتماعية والسياسية، وظهرت المطالب الشعبية بالانفتاح بعد الغزو الأمريكي للعراق في 2003، دون صدور أية دعوات لإزاحة الأسد عن السلطة، وخلال تلك الفترة تدهورت العلاقات السورية الأمريكية حينما عارض الأسد الغزو الأمريكي للعراق، وزاد من سوء العلاقة قيام الأسد بمساعدة الجهاديين للعبور من سوريا إلى العراق لقتال القوات الأمريكية، ويمكن القول ببساطة إن سوريا لم تكن طوال تاريخها الحديث في صف الولايات المتحدة، ولم يقم هنالك أي تعاون استراتيجي بينهما، ولو وضعنا كل هذه الحقائق بعين الاعتبار لوجدنا أن الموقف الأمريكي تجاه سوريا تأثر بالتاريخ المتصادم والمضطرب للعلاقات بين البلدين.

ورأت الدراسة أنه من الصعب على أمة مثل الولايات المتحدة تخوض حرباً على إرهاب ترتبط عقائده وممارساته بمنطقة الشرق الأوسط أن تتدخل في سوريا إلا من باب محاربة الإرهاب، ولا بد من الاعتراف أن الولايات المتحدة قد ارتكبت عدة أخطاء جسيمة أبرزها دعوة الأسد للتنحي وإنشاء خط أحمر فيما يتعلق باستخدام السلاح الكيميائي دون أن تقرن القول بالفعل، بل أحالت المبادرات السياسية للتعامل مع الأزمة السورية إلى السعودية التي قامت بتقديم الدعم المالي والعقائدي للجهاديين، وتركيا التي مهدت الطريق للجهاديين إلى دمشق، وسعت الولايات المتحدة لدعم بعض فصائل المعارضة التي غيرت ولاءاتها وبايعت جبهة النصرة أو انضمت للجماعات السلفية الجهادية.

كما اعتبرت الدراسة أن الفصائل السورية المعتدلة غير بريئة مما حل بسوريا، فحينما صنفت الولايات المتحدة جبهة النصرة منظمة إرهابية في نوفمبر 2012؛ استنكرت المعارضة التصنيف الأمريكي مؤكدين أنه لا يمكن الاستغناء عن الجبهة في قتال نظام الأسد، ومثل ذلك خطأ إستراتيجياً خطيرا ارتكبته المعارضة، وفي حين دعمت تركيا ودول

الخليج أصنافاً متعددة من الإسلاميين والجهاديين أكثر من دعمها للمعتدلين، وتلك هي الحالة في العالم العربي الذي صفق قبل ذلك لنظام الأسد ودعمه من قبل، ومن المؤكد أن ظهور تنظيم الدولة يعكس الأزمة السياسية والاجتماعية العميقة التي يعيشها العالم العربي.

وحينما بدأ نظام الأسد يترنح رغم دعم إيران؛ تدخلت روسيا ليس فقط لإنقاذ النظام الذي يسبح في فلكها بل لكي تجد لنفسها موطئ قدم في حوض المتوسط، ولتتمترس في منطقة كانت تخضع تحت النفوذ الأمريكي، حيث مكنها ذلك التدخل من وضع مناطق غرب سوريا تحت النفوذ الإيراني المرتبط بموسكو، والسعي لجعل شرق حوض المتوسط بحيرة روسية، مما عقد الوضع وحد من قدرة واشنطن على المناورة في تلك المنطقة، وسيكون من السذاجة استبعاد إمكانية سعي روسيا لتطبيق سيناريو غروزني في سوريا، إذ إن عمليات التهجير القسري في مناطق غرب سوريا، والوحشية التي يمارسها الروس لبسط سيطرتهم على حلب قد وضعت واشنطن في مأزق يبعث على السخرية، خاصة وأنها وجدت نفسها مصطفة إلى جانب الروس في مواجهة جماعات «السلفية الجهادية»، في حين لم تدعم إدارة أوباما ولا الكونغرس ولا الرأي العام الأمريكي قيام الولايات المتحدة بإرسال قواتها إلى أرض غير صديقة، مما جعلها تعتمد في ذلك على الروس لكي لا تقع قواتها في مأزق التورط بمعركة يقتتل فيها الجهاديون مع «حزب الله» والميلشيات الإيرانية وقوات النظام، من المؤكد أن الولايات المتحدة في وضع لا تحسد عليه في كل من العراق وسوريا حيث تفوق أعداد الأعداء على الأصدقاء، وذلك على الرغم من كونها الداعم الأكبر من حيث تقديم المساعدات الإنسانية للاجئن السوريين، وإرسال العشرات من قواتها لتدريب وتسليح المعارضة المعتدلة.

وقد رسم الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون في خطابة الأخير أمام الأمم المتحدة صورة دقيقة للأزمة السورية عندما قال: إن من بين الحضور أمام الجمعية العامة ممثلين عن حكومات تجاهلت وسهلت ومولت وشاركت وربما خططت وارتكبت الفظائع التي تقوم بها كل الأطراف في سوريا بحق المدنيين وأكثر من قام بذلك حكومة النظام السوري التي لازالت تقصف بالبراميل وتمارس التعذيب المنهج بحق آلاف المعتقلين.

وهذه الصورة تمثل مأساة سوريا ومأساة العالم الإسلامي، مما يفرض على الولايات المتحدة استخدام قوتها الناعمة للتوصل لوقف إطلاق نار دائم ينهي قتل وتشريد السوريين، ولا شك في أن التعامل مع روسيا أمر منهك وأحياناً عقيم، لكن الحقيقة الماثلة هي أن الولايات المتحدة لن تتمكن من فرض وقف لإطلاق النار دون نشر قوات ضخمة لاحتلال سوريا، ففي كتابه الأحدث (النظام العالمي) يؤكد هنري كيسنجر أن التحدي الرئيسي في القرن الواحد والعشرين يكمن في صياغة نظام دولي في عالم تجتاحه الصراعات العنيفة وانتشار التكنولوجيا والتشدد، مضيفاً أنه إذا لم تتوصل القوى إلى نوع جديد من التوافق على القواعد العالمية فستنتشر الفوضى، وسيكون من الصعب على الولايات المتحدة أن تلعب دور القيادة الذي مارسته في مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

إن الولايات المتحدة اليوم تواجه تناقضاً في دورها من خلال محاولة لعب دور القائد بغير منازع، لكنها تجد نفسها في وضع تنافسي وأحيانا في وضع دولي غير مستقر وهذه هي حالة سوريا التي تدفع ثمناً باهظاً نتيجة الأخطاء الاجتماعية والسياسية والطائفية السائدة في المجتمع العربي، وكان الفيلسوف السوري صادق العظم قد صنف كتاباً عقب نكسة عام 1967 بعنوان «النقد الذاتي بعد الهزيمة»، رأى فيه أن هزيمة الجيوش العربية أمام إسرائيل لم تكن بسبب القوة الإسرائيلية بل بسبب الأخطاء السائدة في المجتمعات العربية، والتي أصبحت اليوم أفدح من أي وقت مضى.

وتمثل مدينة حلب اليوم واقع المأساة السورية، حيث تنتظر مصيرها كمدينة هامة تعمل قوات النظام وحلفائها الروس والإيرانيين على بسط السيطرة عليها، ومن الواضح من تصريحات كيري أن الولايات المتحدة لن تخوض حربا مع روسيا لأجل حلب، ولا يعني عدم قيام الولايات المتحدة والمجتمع الدولي بممارسة ضغط كبير على روسيا وحلفائها بعدة أشكال، قد يكون أبرزها حروب الوكالة.

وفي حالة سقوط حلب سيطرح السؤال التالي نفسه: كيف نغير الديناميات في سوريا لصالح المعتدلين دون التسبب بحروبٍ ومآسٍ أكبر؟

وسيبقى هذا السؤال مفتوحاً إلى حين تولي إدارة جديدة مقاليد البيت الأبيض.

www.strategy-watch.com © حقوق النشر محفوظة